

المجاعة بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1944-1945 على ضوء سجلات

الأحباس والتركات وفتاوى الفقهاء

Famine in Touat Region during the French Colonization
1944-1945 in light of Habous, Legacies Records and Fatwas of
Religious Scholars

صص 571-591

اسم ولقب المؤلف المرسل: كريمة مقدم- Karima Mekadem

الدرجة والعنوان المهني: طالبة دكتوراه- وعضو في مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا-

جامعة أحمد دراية- أدرار- الجزائر/ البريد الإلكتروني: mek.karima27@univ-adrar.edu.dz

اسم ولقب المؤلف الثاني: عبد الله بابا- Abdullah Baba

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- جامعة أحمد دراية- أدرار- الجزائر.

البريد الإلكتروني: abd.baba@univ-adrar.edu.dz

تاريخ استقبال المقال: 2021/03/05 تاريخ المراجعة: 2021/04/18 تاريخ القبول: 2021/05/29.

الملخص: تتناول الدراسة أزمة المجاعة التي عاشها المجتمع التواتي ما بين سنتي 1944-1945، باعتبارها من أبرز الأزمات التي انتابت المجتمع خلال فترة الاحتلال الفرنسي للمنطقة (1901-1962)، والتي كانت نتيجة تفاعل عوامل طبيعية وأخرى بشرية وتركت أثارا على المجتمع، من خلال تسليط الضوء على الأسباب الحقيقية للأزمة وأثارها، خاصة الاقتصادية منها، من خلال استنطاق مصدرين أساسيين: سجلات الأحباس والتركات لسنوات 1944-1946م التي حررها فقهاء المحكمة الشرعية وفتاوى الفقهاء التي عالجت بعض القضايا والنوازل التي استجبت خلال تلك الفترة، هذه الوثائق التي لم تحفظ لنا الحقوق فقط، وإنما حفظت أيضاً جزءاً من تاريخ المنطقة، فقد أثبتت هذه المصادر أن العامل الطبيعي المتمثل في الجراد لم يكن العامل الأساسي في ظهور الأزمة وإنما العامل الحاسم الذي كان وراء ظهور الأزمة ثم تفاقمها هو العامل البشري المتمثل في السياسة الاستعمارية، ورغم أن الإنسان في توات اهتدى إلى سبل لمواجهة الأزمة والتخفيف من حدتها أخذت عدة أشكال في ظل غياب دور الإدارة الفرنسية، إلا أن الأزمة كان لها آثارا على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي و ساهمت في زيادة نسبة الفقر نتيجة انتقال الملكيات وضياع الأحباس، ونتيجة لهول ما لقيه سكان توات من شدة وضيق، وما تركته الأزمة من آثار

سجلتها الوثائق ولا يزال يذكرها من عايشوا الأزمة أصبحت بذلك هذه السنة مرجعا للتاريخ عند سكان المنطقة.

الكلمات المفتاحية: توات: المجاعة: عام الغلاء: الاستعمار الفرنسي: الجراد: الضرائب: الديون: الأحباس: التركات: الفقهاء.

ABSTRACT: This study discusses famine crisis that the Touat community suffered from between the years of 1944-1945, as one of the most important crisis that afflicted the community during the era of the French colonization of the region (1901-1962). This crisis was a result of natural and human factors. The study sheds light on the real factors and effects of the crisis, especially the economic ones, by investigating two main sources: the *habous* and legacies records of the years of 1944-1946 drawn up by the Shari'a court judges as well as *fatwas* of the religious scholars that dealt with some issues and calamities that have arisen during that period. These documents, which have not only preserved our rights, but also preserved a part of the region history, have proven that the natural factor that consists of locusts was not the primary factor behind the crisis emergence, but rather the human factor which consist of the colonial policy. And despite that, the Touat community found ways to confront and mitigate the crisis that took many forms due to the absence of the role of the French administration. The crisis had many effects on the social and economic level and caused an increase in poverty rate as a result of transfer of properties and loss of *houbous* as well as severity and distress that people of Touat experienced. The effects of the crisis are stored in the memories of those who lived there. This year became a reference for history for people who live in that region.

Keywords: Touat; famine; year of high cost; French colonization; locusts; taxes; debts; *houbous*; legacies; religious scholars.

المقدمة: أزمة الجوع أو المجاعة من الأزمات والشدائد التي تمتحن بها الشعوب والأمم، فلا يكاد يخلو تاريخ أمة من الأزمات أو المحن والتي تظهر بين الفترة والأخرى تدفع الناس والسلطات للبحث عن مخرج منها فتمر الأزمة تاركة وراءها أثارا خفيفة أو جروحا عميقة أو تحدث تغييرا كبيرا في حياة المجتمعات، ومنطقة توات واحدة من مناطق الجزائر سجلت عبر تاريخها الطويل العديد من الأزمات، خاصة منها ظاهرة المجاعة التي تكرر ظهورها في المنطقة، والتي كان آخرها أزمة سنة 1944-1945م، ونتيجة لهول ما لقيه الأهالي من شدة وضيق، وما تركته من آثار لا يزال يذكرها من عايشوا الأزمة أصبح هذه السنة سنة معلمية تعرف بعام الجوع وعام البون وعام الجراد.

ومن المصادر التاريخية التي حفظت لنا جوانب عن الأزمة؛ سجلات الأعباس والتركات التي حررها فقهاء المحكمة الشرعية، والتي لا يقتصر دورها على حفظ الحقوق وحل الخلافات بين الناس بل يتعداه إلى حفظ ذاكرة الشعوب والأمم، من هذا المنطلق جاءت فكرة تناول موضوع أزمة الجوع في توات 1944-1945م، من خلال سجلات الأعباس والتركات وفتاوى الفقهاء، وتهدف الدراسة إلى استنطاق أحكام القضاة وفتاوى الفقهاء لتسليط الضوء على جزء من تاريخ توات الاقتصادي والاجتماعي، والتحولت التي عرفها خاصة في أوقات الأزمات في ظل قلة الكتابات حول الموضوع واعتمادها بالدرجة الأولى على الروايات الشفوية التي قد ينتابها النسيان والتداخل، خاصة وأن المنطقة شهدت أزمات عديدة في فترات متقاربة.

ولمعالجة الموضوع تم طرح الإشكالية التالية : ما العوامل الأساسية التي كانت وراء أزمة الجوع التي عانى منها المجتمع في توات 1944-1945؟ وإلى أي مدى أثرت هذه الأزمة على المجتمع؟

1- المجتمع التواتي والأزمات:

1-1 التعريف بالمجتمع التواتي: توات¹ منطقة جغرافية تقع جنوب غرب الجزائر وهي جزء من الصحراء الكبرى، ذكرها الرحالة العرب والعجم في مؤلفاتهم منهم ابن خلدون² العياشي الذي حط الرحال بأول عمالاتها منطقة تسابيت ووصفها بأنها ذات أهمية تجارية نظرا لموقعها في طريق القوافل التجارية القادمة من بلاد السودان إلى بلاد المغرب³. فممنطقة توات، تمتد من مقاطعة تسابيت شمالاً إلى مقاطعة رقان جنوباً، تتخللها مجموعة من القصور والواحات، يحدها من الناحية الشمالية العرق الغربي الكبير ومنطقة تيكورارين وواد الساور، ومن الناحية الغربية وادي مسعود وعرق الشاش ومن الناحية الشرقية هضبة تادميت ومنطقة تيدكلت ومن الناحية الجنوبية صحراء تنزروفت⁴ - وحسب التقسيم الإداري الجزائري اليوم هي جزء من ولاية أدرار- أما فلكياً فتتوسط بين دائرتي عرض 26.5° و 28.5° شمالاً وبين خطي طول 0.3° شرقاً و 0.5° غرباً⁵، تتميز المنطقة من الناحية التضاريسية بالرتابة والاستواء حيث يغلب عليها طابع الرق والعروق كما تتخللها العديد من السبخات المالحة والواحات التي مثلت مناطق استقرار السكان.

يسود المنطقة مناخ صحراوي، ذو شتاء بارد وصيف شديد الحرارة، ويبلغ الجفاف ذروته في المنطقة، فيقل متوسط التساقط عن 40 ملم سنوياً، هذه الخصائص المناخية مع نوعية التربة أثرت في الغطاء النباتي من حيث انتشاره فنسبته قليلة باستثناء النباتات الشوكية التي تستطيع التأقلم مع الجفاف أهمها النخيل التي تمتاز بالجذور الطويلة للبحث عن الماء في باطن الأرض والتي تنمو على مستوى الواحات⁶، أما الأودية التي تمر في المنطقة فأهمها واد مسعود الذي يقطع بلاد توات من منطقة بودة ليغور في صحراء تزرؤفت . وعلى طول هذا المسار وعلى حوافه قامت أهم أعراش توات منها عرش تيمي وتمنطيط وزاوية كنتة انزجيمير التي تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر تعرف بالقصور⁷.

لم تمنع هذه الخصائص البيئية للمنطقة من استقرار السكان بها والتأقلم معها، فقد شهدت توات هجرات لأفراد وقبائل من بربر وعرب وزنوج عبر فترات مختلفة استوطنت المنطقة وتعايشت مع بعضها البعض، ومع مرور الوقت امتزجت وشكلت المجتمع التواتي، إلا أن ما يميز المجتمع التواتي هو انقسامه إلى فئات متفاوتة ومرد ذلك لتفاوت ملكية الأرض أو الماء، والتي تمثل أهم ثروة في البيئة الصحراوية ناهيك عن عامل الشرف أو الانتساب إلى آل البيت النبوي الذي أسهم في تميز فئة بذاتها عن غيرها من الفئات، هذه العوامل كانت وراء ظهور خمس فئات اجتماعية متميزة: فئة الأشراف، فئة المرابطين، فئة الأحرار، فئة الحراطين، وفئة العبيد.

- فئة الأشراف: تميزت هذه الفئة داخل المجتمع التواتي فحظيت بمكانة سامية لدى أهل توات نظير انتسابها إلى آل البيت النبوي الشريف، وقد وصلت إلى المنطقة عبر فترات مختلفة، كان أول من دخل من الأشراف الأدارسة توات واستقر بها العالم مولاي سليمان بن علي⁸، لتتواصل هجراتهم كأفراد أو قبائل ومن أسباب مقدمهم الاضطرابات والثورات التي كانت تعيشها المناطق الشمالية لبلاد المغرب، مثلت فئة الأشراف نسبة قليلة في المجتمع التواتي مطلع القرن العشرين لم تتجاوز نسبتها 15% من سكان توات ورغم قلة عددها إلا أنها استحوذت على 36% من نسبة المياه ومثله من النخيل في توات، وظلت هذه الفئة محافظة على مكانتها الاجتماعية والاقتصادية وتميزها داخل المجتمع التواتي حتى في فترة الاحتلال الفرنسي للمنطقة وقد حظى البعض من أفرادها بمناصب لدى السلطة الفرنسية كمنصب القايد⁹.

- فئة المرابطين: أشتق الاسم من الرباط الذي هو مكان تجمع الفرسان للدفاع عن الثغور أو مكان تجمع المتصوفة للعبادة أو التعليم وأصبح أصحابه ينعتون بالمرابطين¹⁰، عرفت هذه الفئة بدورها ومكانتها العلمية بتواتر واليها ينتسب شيوخ الزوايا وممثلوها وأشهر الفقهاء والعلماء والقضاة بتواتر منهم علماء الأسترين البكرية والبلبلالية الذين شغلوا منصب القضاء في تواتر لعقود عديدة، هذا الدور العلمي والديني الذي لعبته هذه الفئة في تواتر جعلها تحظى بالتبجيل والتعظيم عند أهل تواتر أما بالنسبة لوضعها الاقتصادي فرغم أنها لم تكن تمثل سوى نسبة 12.27% من نسبة سكان تواتر في بداية الاحتلال إلا أنها امتلكت ثروة كبيرة فكان بيدها 16% من النخيل ومن الماء¹¹.

- فئة الأحرار: جمعت هذه الفئة بين عناصر من أصول بربرية التي استوطنت المنطقة منذ أزمنة قديمة منها قبائل زناتة وعناصر من أصول عربية التي بدأت هجراتها نحو تواتر بعد الفتح الإسلامي في فترات متباعدة ويعتبر عرب المعقل أول من وصل تواتر من العرب حيث جاوروا البربر ثم سرعان ما تحكموا فيهم وفرضوا عليهم الأتوات والضرائب¹²، مثلت هذه الطبقة حسب الإحصائيات الفرنسية في العشرية الأولى للقرن العشرين ما يقارب نسبة 26% من نسبة السكان تمتعت بوضع اقتصادي حسن فقد امتلكت 30% من المياه و32% من النخيل¹³، اشتغل بعض أفرادها في مجال التجارة الداخلية فامتلكوا الحوانيت ومنهم من مارس التجارة الخارجية¹⁴، وفي فترة الاحتلال الفرنسي اتسعت هذه الفئة أكثر بعد استقرار عناصر جديدة في منطقة تبيي منها فئة الميزابيين والشعانية والغنامنة في أحياء خاصة بهم عرفت بفيلاح تبيي (Village Timmy) هذه العناصر الجديدة كانت تشغل كمهارية أو كتجار، استطاعت أن تكون لنفسها ملكيات من الأرض والماء في تواتر مع مرور الوقت كما كان لها حضور ودور سياسي واقتصادي واجتماعي في المجتمع، وفي فترة الاحتلال الفرنسي شغل أفراد من فئة الأحرار وظائف إدارية كقياد العروش والخوجة والعدل وكبير الجماعة¹⁵.

- فئة الحراطين: أو الحرائين تضاربت الأقوال حول أصل هذه التسمية فيرجع أبو العباس بن خالد الناصري أن اشتقاق لفظ الحراطين أو الحرائين من الحر الثاني ما يعني أن الحرائين هو حر ولكن من درجة ثانية¹⁶، يقول سلكة عبد الرحمان أن أسيادهم أعتقوهم لكبر سنهم أو رجاء ثواب الله سبحانه وتعالى¹⁷، بينما يرى آخرون أن هذه الكلمة جاءت من

طبيعة العمل الذي كانت تمارسه هذه الفئة واشتهرت به، فهي مشتقة من الحراثة فالحرثاني كلمة حورت من حراث على صيغة مبالغة لملازمته العمل في الفلاحة بعد أن كان يقوم بالرعي فتحول إلى العمل في الحراثة، فأنت بصيغة مبالغة للدلالة على الملازمة.. أما عن تحويل الكلمة من حرثاني إلى حرطاني فيرجع ذلك إلى طبيعة النطق عن أهل توات بقوله "أما عن تحويل حرف التاء إلى الطاء فإن النطق عندنا يدغم الحرفين بحيث لا يكاد يميز السامع بين التاء والطاء رغم اختلاف مخارجهما"¹⁸.

ومهما يكن من أصل التسمية فإن هذه الفئة كانت تتمتعين أعمال شاقة كدبغ الجلود وبناء المنازل وبعض الحرف كالحداودة وصناعة الأواني الفخارية وتعليم الأطفال بالإضافة إلى الزراعة¹⁹ في أراضي أصحاب الملكيات الكبرى عن طريق التعاقد معهم كخراسين²⁰ أو خماسين²¹ أو في الملكيات الصغيرة التي استطاعت امتلاكها عن طريق الشراء من أربابها السابقين²²، وما يؤكد درجة التفاوت في الغنى بينها وبين الفئتين السابقتين أنها لم تمتلك إلا 15% من النخيل ومثله من الماء مع بداية الاحتلال بالرغم من أنها تمثل نسبة 37% من سكان المنطقة، ويمكن تفسير ضعف ملكياتها بضعف مداخيلها من الأنشطة التي كانت تمارسها وأيضا تمسك الفئات الأخرى بمصدر الثروة دون مشاركتها مع الحرطين لإبقائهم في وضع الأجير²³.

- فئة العبيد: هم رقيق تم جلبهم من بلاد السودان²⁴ عن طريق حركة التجارة التي كانت قائمة بين المنطقة وبلاد السودان استغلت هذه الفئة في الزراعة والرعي وحفر الآبار وبحكم أنها كانت مملوكة فإنها لم تمتلك أي ثروة في توات في حين بلغت نسبتها 6% من نسبة السكان مع مطلع القرن العشرين، إلا أن هذه النسبة عرفت تراجعاً كبيراً جداً لتختفي مع نهاية الاحتلال الفرنسي ومن أسباب تراجع أعدادها منع السلطات الفرنسية تجارة الرقيق في جميع المناطق الواقعة تحت إدارتها، كما أن اقبال بعض الأسر على عتق عبيدهم ساهم في تقليص نسبة هذه الفئة²⁵.

ورغم ما عرف به المجتمع التواتي من تراتب اجتماعي فرضته الظروف الاجتماعية والاقتصادية إلا أن روح المؤاخاة والتعاطف سادت بين أفراد داخل القصور علاوة على إكرامهم للغريب والمسالمة مع جيرانهم، والتأزر بين فئاته في أوقات الأزمات²⁶، خاصة وأن المنطقة فقد تعرضت لأزمات عديدة عبر تاريخها، منها الأزمات الاقتصادية التي أدت إلى

وقوع المجاعة، فمن أقدم الأزمات التي سجلتها المصادر التاريخية التي كتبت عن المنطقة منها:

- أزمة سنة 749هـ / 1348م تعرضت المنطقة في هذه السنة لموجات كثيفة من الجراد أضرب بالمحاصيل الزراعية وعانى السكان من المجاعة.

- وفي سنة 899هـ / 1494م أصاب المنطقة بالقحط وانتشار الوباء²⁷.

- أزمة سنة 1010هـ / 1601م تعرضت بعض قصور توات للغزو، ووقع قحط عظيم وغلاء في سائر نواحي توات فبلغ سعر صاع التمر قيمة شاة، ما دفع الناس إلى أكل الحمّار²⁸.

- وفي سنة 1069هـ / 1659م تعرضت المنطقة لموجة جراد، وانتشرت المجاعة التي استمرت ثلاثة سنوات ما دفع ببعض السكان إلى الهجرة²⁹.

- وفي سنة 1116هـ / 1704م غلا كل شيء حتى أن الجنان كان يباع بحزمة من اللفت ومن أسباب ذلك هذا الغلاء الحروب والفتن بين القبائل³⁰.

ما يلاحظ أن الأزمات التي عرفت المنطقة إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي أدت إلى وقوع المجاعة والتي يبدو أن الجراد كان العامل الأساسي في خلقها والذي ما فتئ يحل بالمنطقة بين الحين والآخر يحصد الأرض ويترك الناس تواجه الجوع والمجاعة بالإضافة إلى عوامل طبيعية أخرى كالجفاف، غير أنه لا يمكن اغفال العوامل السياسية بالمنطقة كانت سائبة لم تعرف الاستقرار السياسي نتيجة غياب سلطة توحيدها وتضبط الأمن بها وتصد غارات القبائل المحاربة وتعمل على اتخاذ الإجراءات الكفيلة لمواجهة الأزمات والحد من انتشارها ومن العوامل السياسية أيضا انقسام القبائل في توات إلى صفين، صف يحمي وانتشارها ومن العوامل السياسية أيضا انقسام القبائل في توات إلى صفين، صف يحمي وصف سفيان اشتدت العداوة بينهما³¹ ولم تكتف القبائل بالتعصب لفريقها ونصرته بل اتخذت كل طائفة انصارا لها خارج المنطقة ما جعل رحى الحرب لا تهدأ خاصة في القرن التاسع عشر الميلادي³²، إلا أنه مع مطلع القرن العشرين ستشهد المنطقة تحولات كبرى بدخول الاحتلال الفرنسي للمنطقة.

2.1 الاحتلال الفرنسي لتوات وأثره على المجتمع: احتلت فرنسا توات مطلع القرن العشرين في إطار مشروعها التوسعي في كامل التراب الوطني باحتلال الصحراء الجزائرية، ولربط مستعمراتها في شمال إفريقيا بمستعمراتها جنوب الصحراء بهدف توحيد أراضي الإمبراطورية كما أن هذا الأمر سيمكنها من السيطرة على التجارة الصحراوية، خاصة وأن

توات تمثل معبرا هاما لتجارة القوافل وحلقة وصل بين تجارة الشمال وإفريقيا جنوب الصحراء.

باشرت فرنسا استعداداتها لاحتلال المنطقة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر في إطار مشروعها التوسعي في الجنوب الغربي الجزائري بتكثيف بعثاتها الاستكشافية منها بعثة الألماني جرهارد رولفس (Gerhard Rohlfs) سنة 1864 وبعثت كاميل دولي (Camille Doulé) سنة 1889 والذي لقي حتفه في أقبلي بعد اكتشاف أمره، وآخر بعثة كانت بعثة فلامون (G.B.Flamend) نوفمبر 1899 كانت مهمتها علمية استكشافية لكنها تحولت إلى حملة عسكرية مهدت الطريق لاحتلال المنطقة³³. مكنت هذه البعثات العلمية من جمع معلومات هامة عن الأوضاع العامة للمنطقة كما زودتها بخرائط جغرافية وطبوغرافية للمنطقة، ومن ناحية أخرى وفي إطار الاستعداد لتنفيذ مشروع الاحتلال عملت فرنسا على استمالة بعض شيوخ الطرق الصوفية وتوظيف نفوذهم للتمهيد للاحتلال كشيخ الطريقة التيجانية الذي راسل اتباعه في توات وعين صالح ينصحهم بتقديم المساعدات للجيش الفرنسي³⁴.

ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت فرنسا قد انتهت استعداداتها لاحتلال الجنوب الغربي، فبدأت العمليات العسكرية في ديسمبر 1899م في تيدكلت عن طريق بعثة فلامون العلمية التي كانت تحت حراسة مشددة عندما اكتشف سكان عين صالح نوايا البعثة استعدادوا لمواجهتها فكانت أول مواجهة يوم 28 ديسمبر 1899م في معركة الفقيقية إلا أن التفوق العسكري الفرنسي مكّنهم من الانتصار وتكبد المقاومون خسائر كبرى منها استشهاد ستة وخمسون شهيدا منهم الحاج المهدي باجودة قائد المعركة³⁵، شجع هذا الانتصار فرنسا على مواصلة احتلال تيدكلت إلا أن الطريق لم يكن معبدا أمامها فقد قاوم السكان الاحتلال واشتبكوا معه في معارك كبرى أهمها معركة الدغامشة يوم 5 جانفي 1900م بقيادة عبد الله الرقاني والتي بلغ عدد المجاهدين بها 800 مجاهد قدموا من مناطق مختلفة من عين صالح وأولف وتوات، لكن التكتيك والتفوق العسكري الفرنسي كان له دورا في ترجيح الكفة لصالح الجيش الفرنسي، ومن المعارك البطولية التي استبسل فيها المجاهدون الذين تجمعوا من تيدكلت وتوات وقورارة لوقف زحف العدو معركة إينغر في 19 مارس

1900م، وبعد سقوط إينغر احتلت القوات الفرنسية تيط يوم 23 مارس 1900 وأقبلي وأولف يوم 28 مارس 1900م³⁶

بعد السيطرة على تيدكلت توجهت القوات الفرنسية لإخضاع منطقة قورارة فأرسلت من المنية يوم 27 ابريل 1900 طابور يتألف من 800 جندي بقيادة العقيد منيسترا (Menestrel) دعمته بـ 400 جندي إضافي تمكن من دخول تيميمون يوم 12 ماي 1900م، بعدها شرعت القوات الفرنسية في احتلال باقي قصور قورارة³⁷، واعنف مقاومة واجهتها كانت في منطقة المطارفة التي صمدت في وجه الاحتلال خمسة أشهر، حيث فشلت قوات الاحتلال في اقتحام القصر في محاولتين ولم تنجح إلا بعد مضاعفة قواتها وأسلحتها³⁸. وبسقوط المطارفة أصبح الطريق ممهدا أمام القوات الفرنسية لاحتلال توات ولإنجاح العملية وضعت الحكومة استراتيجية قوامها احتلال منطقة توات بطابورين، أحدهما قادم من الشمال من المنية مروراً بقورارة بقيادة الجنرال سيرفيار (Serviere) بتعداد 800 جندي مع أربعة مدافع انطلق من تيميمون باتجاه توات، بينما انطلقت القوة الثانية من تيدكلت بالجنوب مكونة من 300 جندي، على أن تلتقي القوتان عند بلدة تبي بتوات، وأمام هذه القوة العسكرية الكبيرة والخطة المحكمة لم يستطع سكان المنطقة المقاومة فتمكنت القوات الفرنسية من الدخول إلى تبي عاصمة توات يوم 10 فيفري 1901م³⁹، ثم واصلت القوات الفرنسية إخضاع باقي قصور الإقليم بعد تأسيس المركز العسكري بأدغاغ. حاول أعيان المنطقة اللجوء إلى سلطان المغرب لطلب المساعدة إلا أن المغرب لم يحرك ساكناً⁴⁰، فما كان على السكان إلا الاعتماد على النفس ومواجهة الاحتلال بمقاومة عسكرية والسياسية والثقافية، عبر أهل توات من خلالها عن رفضهم للاحتلال وسياسته. بعد الإخضاع الكلي شرعت الإدارة الاستعمارية تحت إمرة سيرفيار في تنظيم الإقليم من الناحية الإدارية والعسكرية إلى معي لابين (Laperine) كحاكم عام للأقاليم الصحراوية في 31 ديسمبر 1902م، وأصبحت توات تابعة لإقليم الواحات بموجب التنظيم الإداري الجديد الصادر في 14 أوت 1905م⁴¹، وكانت الإدارة الفرنسية منذ عهد سيرفيار قد أقرت السلطة التقليدية للجماعة التواتية المشكلة من الأعيان التي يرأسها شيخ يلقب بالكبير على أن تكون الجماعة مسؤولة عن تنفيذ قرارات السلطة الفرنسية تحت سلطة القايد الذي يترأس العرش⁴².

أدى الوجود الاستعماري في المنطقة وما أحدثه من تنظيمات سياسته وعسكرية وخاصة الاقتصادية الهادفة إلى السيطرة على الموارد الاقتصادية للإقليم كمحاولة السيطرة على تجارة القوافل والتحكم فيها إلى تدهور هذا للنشاط في السنوات الأولى للاحتلال، أدى هذا التدهور بدوره إلى تعطيل الحرف التي كانت تمثل التجارة المحرك الرئيسي لها بما توفره من مواد أولية وأسواق للمنتجات، فتوجه معظمهم إلى الزراعة وتربية المواشي التي أصبحت النشاط الرئيسي للسكان رغم ضعف مداخيلها بسبب طبيعة المنطقة، هذه التحولات أدت إلى تدني المستوى المعيشي لسكان توات، كما انتهجت فرنسا سياسة التفجير والتجوع من خلال الضرائب المتنوعة التي فرضتها على أهل توات والتي لم تراخ خصوصية المنطقة وضعف مداخيلها، فانتشرت البطالة والفقر وارتفعت نسبة الهجرة⁴³، حتى الزوايا التي مثلت منارات العلم في المنطقة وملاذ الفقراء وعابري السبيل تعرضت للمضايقة من قبل الاحتلال في محاولة للحد من نشاطها وتعطيل دورها.

هذا الوضع الاقتصادي الهش والمتدني للمجتمع التواتي جعله يتأثر بأقل التحولات الطبيعية أو الاقتصادية التي تتعرض لها المنطقة أو العالم، فسجلت توات في هذه الفترة وقوع أزمات عاش الشعب ويلاتهما، من بينها أزمات الجوع والمجاعة والأوبئة كأزمة سنة 1324هـ/1906م نتيجة هجوم أسراب الجراد على المنطقة والتي أحدثت خسائر كبيرة في منتج التمر فقد أحصى سكان كوسام وهي إحدى قصور توات خسائر معتبرة في إنتاج التمر بلغ مجموعها 195.5 حملا⁴⁴ من التمر لستة عشر فلاحا⁴⁵، سيكون ذلك سببا في وقوع المجاعة نتيجة قلة الغذاء، وما بين سنتي 1917-1919 شهدت منطقة الجنوب الغربي للجزائر بما في ذلك منطقة توات انتشار التيفوس والجذري نتيجة ضعف الرقابة الصحية⁴⁶ فمات عدد كبير من الناس بتوات وتيدكلت وقورارة خاصة من الأطفال⁴⁷.

وفي سنة 1929م وقعت الأزمة الاقتصادية العالمية والتي دامت إلى سنة 1933م وتأثر سكان توات بها فاختلفت السلع وعلت الأسعار حتى صار الناس يغسلون الملابس بالطين البيضاء وبعض الأعشاب بدلا من الصابون⁴⁸. ولم تمر إلا سنوات قليلة حتى كان السكان على موعد مع أزمة الجوع التي كانت نقطة تحول في حياة عدد من الأسر التواتية.

2- المجاعة بتوات عام 1944-1945:

1.2- عوامل ظهور الأزمة: اقترنت سنة 1944-1945 في الذاكرة الشعبية بالجوع فسميت بعام الجوع أو عام الغلاء، ووصفت العقود التي حررها القضاة في سجلات الاحباس والتركات وفتاوى العلماء هذه السنة بأنها سنة البلوى والضيق والشدة، ويبدو أن هذه الأزمة لم تكن وليدة هذه السنة بل تجلت ملامحها قبل ذلك لتبلغ ذروتها سنة 1944-1945، وممردها لعوامل من افتعال الانسان -إن لم نقل الاستعمار- وعوامل أخرى طبيعية يمكن تحديدها في العوامل الثلاث التالية:

- تأثير الحرب العالمية الثانية على الوضع الاقتصادي في الجزائر: مثلت الحرب العالمية الثانية 1939-1945 عبء ثقيلا على الجزائريين من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، ففرنسا التي أجبرت على المشاركة في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء ضد المانيا ودول المحور حولت مستعمراتها بما في ذلك الجزائر إلى قواعد خلفية للدعم اللوجستي للحرب، فجندت الشباب الجزائري في الحرب العالمية الثانية حيث بلغ عدد المجندين 176 ألف واستغلت 130 ألف عامل جزائري في المصانع وأعداد أخرى في السكك الحديدية والمناجم وخدمة الجيش ومهن أخرى⁴⁹.

ولم تكتف فرنسا بتسخير طاقات البشرية فحسب بل قامت بتسخير الموارد وخيرات الجزائر لتمويل فرنسا وجبهات القتال، فسخرت الإنتاج الزراعي والحيواني وتم تحويل كميات معتبرة من الانتاج ورؤوس المواشي إلى فرنسا لتغطية احتياجاتها، وفي عهد حكومة فيشي كانت الجزائر تمول فرنسا والمحور فأدى ذلك إلى إفراغ المخازن بحجة تغذية فرنسا⁵⁰، ومع نزول الحلفاء في شمال افريقيا سنة 1942 أضى جزء من الإنتاج مسخرا لتلبية احتياجاتهم.

فقد بينت الإحصائيات أنه تم تحويل 1.821.548 قنطار من القمح إلى فرنسا سنة 1941م⁵¹، كما حولت 522600 قنطار من البقول من الجزائر إلى فرنسا سنة (1940-1941) بعدما كانت الكمية التي زودت بها الجزائر فرنسا سنة (1938-1939) تقدر بـ39 ألف قنطار⁵²، هذا التسخير لمقدرات الجزائر وإنتاجها كان على حساب الشعب الجزائري ففي سنوات الحرب العالمية الثانية تعرضت الجزائر لتقلبات مناخية كالجفاف والفيضانات وهجوم الجراد والتي أثرت على الإنتاج الزراعي والحيواني وأدت إلى تراجعها، فالحبوب التي مثلت الغذاء الرئيسي للسكان انخفضت كمية الانتاج حيث تراجعت من 16.9 مليون

قنطار سنة 1939 إلى 7.9 مليون قنطار سنة 1942، أما إنتاج القمح الصلب فانخفض الإنتاج من 7.6 مليون قنطار سنة 1939 إلى 4.7 مليون سنة 1942، كما مس التراجع محاصيل أخرى كالزيت والتين والأغنام⁵³، رغم هذا التراجع فإن فرنسا واصلت سياسة الاستنزاف لمقدرات الجزائر وخيراتها لتأمين الحياة لشعبها على حساب الشعب الجزائري الذي ترك لمواجهة المجاعة.

أما المواد المستوردة كالسكر والقهوة والصابون والشاي والبنزين والبترول فارتفعت أسعارها هي الأخرى بسبب توقف استيرادها، أدت هذه المتغيرات إلى نقص المواد الضرورية ما دفع السلطات الاستعمارية إلى تقنين التوزيع الخاص بالمواد الأساسية وغير الأساسية، كما مس التقنين حتى المنتجات المحلية، وتم توزيعها عن طريق نظام الحصص أو البون (La Bon)⁵⁴، ومن نتائج هذا النقص في السلع والتوزيع الغير عادل لها انتشار ظاهرة السوق السوداء واحتكار السلع الأساسية وتوزيعها بطرق ملتوية كل ذلك ساهم في تضاعف أسعار المواد الاستهلاكية أضعافا مضاعفة⁵⁵.

وامتد تأثير الأزمة الاقتصادية إلى منطقة توات أيضا فعانت من ندرة المواد الأساسية وغلائها، وذلك ما يبينه لنا الجدول التالي لأسعار المواد الأساسية في سنة 1944⁵⁶

المادة	السعر
قلبة ⁵⁷ الزرع	240 دورو
1 كلغ من اللحم	ما بين 15-20 دورو
1 كلغ من الشاي	300 دورو
1 كلغ من السكر	ما بين 30 و60 دورو
الكتان	20 دورو
الصوف	جاوزت 30 دورو
التوابل والسمن	مفقودة في الأسواق

جدول أسعار المواد الأساسية في أسواق توات 1944

من خلال الجدول يتضح لنا الارتفاع الكبير في الأسعار ومرد ذلك إلى ارتفاع أسعارها في أسواق الشمال، فتوات التي كانت تزود بما تحتاجه من سلع من أسواق خارجية عن طريق تجارة القوافل التي ربطتها بعدة مناطق داخل الجزائر وخارجها منها القوافل التي كانت تزور المنطقة مرة أو مرتين في فترة الشتاء قادمة من البيض والعين الصفرة محملة بالحبوب

والأغنام والصوف واللحوم المجففة والزبدة والزيت ودهن الضأن والقهوة والشاي والسكر والكبريت والصابون، فتبيعها في أسواق توات وتعود حاملة معها التمر والحناء وبعض المصنوعات التقليدية⁵⁸ إلا أن هذه القوافل في هذه السنة جلبت البضائع بأسعار مرتفعة. هذا الارتفاع في الأسعار يؤكد أن أسواق توات كانت تتأثر بالتحويلات التي تشهدها الأسواق في الشمال والأسواق العالمية نتيجة العوامل الاقتصادية أو الطبيعية.

الكوارث الطبيعية: استطاع سكان توات التخفيف من آثار الأزمة الاقتصادية التي بدأت ملامحها تظهر في الجزائر مع بداية الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها من غلاء لأسعار السلع القادمة من الشمال بالاعتماد على الإنتاج المحلي على مستوى البساتين في القصور، خاصة زراعة النخيل الذي يتلاءم مع طبيعة المنطقة وقد انتشرت زراعة النخيل في كل القصور، وسجلت توات إنتاج كميات معتبرة من التمر الذي التي يوجه للاستهلاك المحلي والفائض تتم مقايضته بالسلع التي تحتاجها المنطقة داخل الأسواق التواتية أو بأسواق جنوب الصحراء، إلى جانب التمور حرض السكان على زراعة محاصيل معاشية كزراعة القمح والشعير في فترة الشتاء لتوفر المياه إلا أن كمية الإنتاج من هذين المحصولين كانت قليلة رغم نوعيته الجيدة، وكذا زراعة الخضروات ومنتجات أخرى تسويقية كالحناء والتبغ⁵⁹.

غير أن الانتاج كان يتأثر بالتقلبات المناخية والآفات التي تصيب المحاصيل من فترة إلى أخرى، كما حدث في سنة 1944 فقد شهدت المنطقة تساقط الأمطار التي أضرت بالتمر ثم أعقبتها غزو الجراد الذي أتى على الزروع وعلى سائر النبات الأخضر واليابس⁶⁰، فكانت النتيجة ارتفاع أسعار المواد المنتجة محليا كالقمح والشعير، حتى التمر الذي كان في متناول الجميع والذي كان يباع في الأسواق المحلية بأسعار منخفضة لتوفره عرف هو الآخر غلاء فاحشا⁶¹، فبلغ سعر قلبه اتجازه - الحميرة - خمسين دورو⁶²، بينما أشارت وثيقة أخرى إلى أن سعر بعض الأصناف من التمر بلغ سبعين دورو وثمانين دورو للقلبة الواحدة⁶³، بل وصل ببعض النفوس الطامعة الباحثة عن الثروة والربح السريع على حساب الضعفاء إلى بيع التمر بسعر بمائة وثمانين دورو للقلبة الواحدة⁶⁴. هذه الكارثة الطبيعية كانت وراء قلة الإنتاج المحلي وساهمت في غلاء الأسعار فأصبح الوضع يندربأزمة شديدة.

- السياسة الضريبية: بالرغم من مظاهر البؤس والحرمان التي وصل إليها المجتمع التواتي والتي لم تخف على أحد جراء الأزمة الاقتصادية والكوارث الطبيعية التي جعلت الشعب يواجه الجوع والموت، إلا أن الاحتلال تمادى في سياسته القائمة على استغلال بتكثيف فرض الضرائب الباهضة التي ارهقت كاهله مع التشديد في تحصيلها، فقد كان على سكان أن يدفعوا ضرائب متنوعة كضريبة اللزمة كل على حسب حصته من أشجار النخيل أو حصته من المياه من الفقارة، وتدفع زرعاً أو قمحاً أو نقداً، يتولى القياد وشيوخ القصور توزيع الحصص على الملاكين ثم جمعها⁶⁵ وقد ورد ذكر هذه الضريبة في وثائق المحكمة الشرعية باسم ضريبة البزرة، ففي وثيقة مؤرخة في 25 جويلية 1945 أن السيدة الهالكة فاطمة كان عليها دفع ضريبة البزرة المقدرة بستة قليات واثمن قمحاً وكوز⁶⁶ شعير⁶⁷.

كما ألزمت إدارة الاحتلال السكان بدفع اشتراكات للجمعيات الخيرية التي يبدو في ظاهر الأمر أن خدماتها موجهة لغرض مساعدة الفلاحين الفقراء عن طريق تقديم إعانات وسُلف، ورغم أن الانخراط في الجمعيات الخيرية كان طوعياً إلا أن سلطات الاحتلال أجبرت الفلاحين على دفع الاشتراكات، وكل سلفة يأخذها الفلاح من الجمعية كان عليه إرجاعها مع فائدة ربوية، وكل تأخير يعرض صاحبه لعقوبة ويلزمه بدفع غرامة مالية، كما حملت الرسائل التي وجهها المسؤولون إلى القياد وشيوخ القصور التهديد والتلويح بالعقوبة في حالة التأخر عن دفع الاشتراك أو تسديد الديون⁶⁸ وفي هذه السنوات التي كان الناس يبحثون عن لقمة خبز ليسكتوا الجوع كان عليهم دفع الاشتراكات أو تسديد الديون وكنموذج على ذلك السيدة فاطمة كان عليها دفع دين دار المعاونة قدره ثلاث قليات قمحاً وستة أزجان⁶⁹، ما يعني أن الجمعية تحولت إلى عبء على الفلاحين تستغلهم وتستنزف إمكانياتهم في الوقت الذي كانوا في حاجة إلى مساعداتها.

ومن صور الاستغلال أيضاً للفلاحين إلزامهم من طرف إدارة الاحتلال بدفع حصة من غلة منتوج التمر كل سنة لقوافل الشمال مقابل مبلغ مالي تحدده السلطات الاستعمارية مسبقاً، يتولى القياد ومسؤولوا القصور بتوزيعها على أرباب النخيل وتحصيلها ورغم أن العملية كانت تتم بين الفلاحين والقوافل التجارية إلا صيغة الإلزام مع تحديد السعر كان لها أثر سلبي على الفلاحين⁷⁰، فحتى في هذه السنة التي اتلف فيها الجراد منتوج التمر ولم يجن الفلاحون إلا اليسير منه لم تعف إدارة الاحتلال الفلاحين من دفعها بل ألزمت أرباب

النخيل وأجبرتهم على تأمين التمر للقافلة وذلك ما أكدته عقود في سجلات الأحباس والتركات والتي ورد ذكر الضريبة فيها باسم ضريبة الطكس ووصفت لنا حالة البؤس والضيق التي عايشها الفلاح وما قابلها من سياسة الإكراه على دفع الضريبة من طرف السلطات الاستعمارية جاء فيها "لما أمر حاكم ملحقة توات ببيرو تيمي بدفوع التمر للطكس على يد القايد وكبير الجماعة أمرا لازما لم يقبل بعده عذرو وقال العقوبة تلزم من لم يدفعه وفي شهر ديسمبر سنة 1944 بعث أرباب قوافل التل ليقبضوه على يد القايد والكبير وتكرر الطلب على السيد محمد بن دد بن السيد أبي منصور ليدفع ما عليه من التمر وعسر عليه الحال وضاق ولم يجد بما يقابل أمر الحكم لا قليل التمر بيده ولا كثيره ولو لقوت نفسه ومن تجب عليه نفقته وهما في غاية المسبغة"⁷¹ وفي عقد آخرين أن السيد سالم بن سيد أبي منصور كان ملزما بتأمين أربعة قلابات وأزجن من التمر إلى قافلة شهر ديسمبر سنة 1944م⁷²، أن هذا التعدد في أشكال الضرائب والتشدد في تحصيلها في هذه الظروف يمثل شكلا من أشكال الاستغلال البشع للشعب واستنزاف لمقدراته ودفعه إلى الموت أو الهجرة.

2.2 نتائج الأزمة على المجتمع: ساهمت سياسة التقنين والتوزيع غير العادل للمواد الغذائية ونقص الانتاج بسبب اجتياح الجراد في ارتفاع أسعار المواد الأساسية وفي ظل ضعف القدرة الشرائية للمواطن ومع نفاد مخزون المطمورات وتعسف الادارة الفرنسية في جمع الضرائب كل ذلك ساهم في تردي الأوضاع الاجتماعية لسكان توات، فعانوا من الجوع ومن المجاعة التي اشتدت سنتي 1944-1945، وقد نقلت لنا الوثائق الوقفية والنوازل صور لمعاناة السكان، من خلال عبارات تصف ما وصلت إليه الأسر من الضيق والحاجة حيث أن الرجل لا يجد من الغذاء ما يقتات به ولا ما يعيل به أسرته ومن تجب عليه نفقته، وحتى التمر الذي كان غذاء الغني والفقير وكان في متناول الجميع صار مفقودا، فلا يجد الرجل حبات تمر يسكت بها جوعه حتى كادت بطونهم أن تطوى، كما لم يفتقد السكان ما يسدون به رمقهم بل حتى ما يسترون به أجسادهم بسبب قلة اللباس وغلائه⁷³. وأمام الحاجة إلى الغذاء لما يمثله من عصب للحياة وقوامها، سلك الناس سبلا مختلفة لتأمينه فكان لذلك أثارا مختلفة على السكان.

- اللجوء إلى الطبيعة: دفعت الأزمة الناس إلى تغيير سلوكياتهم وأنماطهم الغذائية فلتعويض القمح والشعير والخبز والتمر ولإسكات الجوع لم يجد الفقراء من سبيل أمامهم من أجل

البقاء على قيد الحياة إلا اللجوء إلى الطبيعة فاقتاتوا على حشائش الأرض كالجرة والبسباس وأفران وعلى الجراد نفسه فصنعوا منه أطباقا مختلفة ومن ألياف النخيل الذي يدعى محليا بالفدام صنعوا ملابسهم ونعالهم، وأما العائلات الميسورة والتي امتلكت بعض الغذاء في المطمورة فعمدت إلى تقنيته بالاكثفاء بوجبة واحدة في الأسبوع أما في سائر أيام الأسبوع فكانت الوجبة حبات من التمر يوزعها رب الأسرة على أفراد أسرته وعلى من تجب عليه نفقته⁷⁴، ونتيجة لهذه الظروف الصعبة فضل البعض الآخر الهجرة إلى أماكن أخرى يبدو أنها كانت أقل تضررا من الأزمة كمنطقة تيدكلت⁷⁵.

- زيادة ظاهرة الاستدانة وتعدد أشكالها: أما المسلك الثاني الذي سلكه الناس هو اللجوء إلى الاستدانة من أصحاب الأملاك لاقتناء ما يحتاجونه من مواد، خاصة بعد تطبيق السلطات الفرنسية لنظام التمويل عن طريق الحصص (البون) كمحاولة منها لمواجهة احتكار السلع والسوق السوداء وضمان وصول المؤمن للناس، بأن تصرف لكل أسرة ما تحتاجه من مواد على حسب عدد أفرادها، يسبق ذلك إحصاء سكان كل قصر من قبل مسؤول القصر ويفرد له القائد وصل بعدد ما أحصى، يقوم مسؤول القصر بصرف البون في محلات مخصصة لذلك، ويوزعه على عائلات القصر على حسب عدد أفرادها، فمكن هذا النظام السكان من الحصول على مواد أساسية كالذيق والسكر والشاي والكتان بأسعار مقننة⁷⁶، ويبدو أن هذه الطريقة مثلت متنفسا للسكان ولقيت استحسانا عند البعض في ظل شح السلع في الأسواق والغلاء الفاحش وفي الوقت الذي ضاق الحال بالناس وأشتد، فقال عنها العالم سالم بن عبد الله البلبالي⁷⁷ أنها "منة ورحمة من رب البرية أجراها على أيديهم لأنهم أقرب مودة لأهل الإيمان السامية، بعد توالي غلاء الأسعار في كل ناحية، في هذه السنين التي للمساوي حاوية"⁷⁸.

ولأن الحصول على التمويل عن طريق البون لم يكن ميسرا للجميع لعجزهم عن تأمين ثمنه وذلك نظرا لعدم ممارسة أغليبيتهم لنشاط اقتصادي مريح وعدم وجود مدخرات مالية يمكن الرجوع إليها، وفي ظل الحصار الذي فرض على السكان الغلاء من جهة والضرائب الفرنسية المتنوعة والمتعالية من جهة أخرى، لم يكن أمامهم من سبيل لإطعام الافواه الجائعة وتجنب العقوبة التي كانت تهدد بها سلطات الاحتلال كل من لا يدفع ما عليه من ضرائب إلا اللجوء إلى الاستدانة، فاستدان البعض المال واستدان آخرون المواد

الغذائية وعلى رأسها القمح والتمر، انفقت لتأمين الغذاء أو وجهت لدفع الضرائب الفرنسية رغم حاجتهم إليها كل ذلك لحفظ النفس ولتجنب العقوبة، وقد يصل الأمر إلى تراكم الديون على الشخص الواحد كما حدث للسيدة فاطمة التي ماتت وفي ذمتها ديون متنوعة كدين الرقضية والبذرة والمعاونة وما افتدت به العمري⁷⁹ وديون لرجال ونساء بلغت قيمة الديون مع كفتها ثلاثون مائة دورو⁸⁰، وفي نموذج آخر استدان السيد سالم بن أبي منصور لتأمين تمر الطكس أربعة قليات وازجن منها ثلاث قليات من سعر سبعين دورو للقلبة الواحدة وقلبة وازجن من سعر ثمانين دورو للقلبة فبلغ مجموع الدين ثلاث مائة دورو وعشر دورو⁸¹. وإقبال الناس على الاستدانة ما هو إلا دليل على شدة معاناتهم وحاجتهم كما يعد ذلك مؤشرا على وجود نوع من التضامن والمساعدة من قبل بعض أصحاب الاملاك للفقراء من أجل مواجهة الأزمة ولوعن طريق الإقراض.

كما بينت الوثائق أن سكان توات ابتكروا صيغا جديدة للاستدانة لم تكن مألوفا، كأن يستدين الشخص مبلغا من المال من شخص آخر فيعطيه المال لشراء ما يحتاجه على شرط أن يكون للدائن حصة من المشتريات قد تكون الثلث أو النصف حسب ما اتفقا عليه⁸²، ما يعني أن المدين سيكون عليه دفع جزء مما اشتراه للدائن على حسب الاتفاق مع الالتزام أيضا بتسديد الدين كاملا في أجاله.

هذا النوع من المعاملة انتشر بين الناس وكثر التساؤل عن جوازه من الناحية الشرعية فصارت نازلة طرحت على بساط الفتوى أمام العلماء، فمنهم من أفتى بعدم جوازه وشدد على الناس، بينما رأى آخرون جواز ذلك منهم الشيخ الفقيه سالم بن عبد الله البلبالي الذي أفتى بجواز هذا النوع من المعاملة بين الناس مع حاجتهم إليها في ظل أزمة الغلاء ورأى أنها من باب الإجارة بالجزء⁸³، بقوله: "إن هذه المعاملة جائزة لاسيما مع شدة احتياج الناس إليها واضطرارهم إليها وإنها من باب الإجارة بالجزء مما يحصل"⁸⁴، واستدل على جواز ذلك برأى مجموعة من العلماء كالشيخ خليل الذي أجاز إجارة الدابة بنصف ما يحتطب عليها وصاع دقيق منه أو من زيت أو إجارة شخص للقيام بعمل معين كحصاد الأرض على أن يكون له نصف ما حصد⁸⁵.

- انتقال الملكية وضياح الأحباس الأهلية: لقد امتد تأثير الأزمة إلى الأملاك التي كانت أغلبها في توات عبارة عن بساتين أو نصيب من مياه الفقارة أو منازل ولشدة الحاجة إلى الغذاء

مع ثقل الضرائب الفرنسية أو الديون التي اضطر إليها البعض والتي سرعان ما تحولت إلى عبء، في هذه الظروف ومع استنفاد جميع الحلول وانسداد جميع الأبواب لم يجد البعض إلا بيع أملاكه أو جزء منها لغرض تأمين احتياجاته في هذه السنة العصبية ومن النماذج التي وردت في السجلات حالة السيدة فاطمة بنت سيد الشريف التي باعت منزل تملكته كصدقة من والدها بمبلغ ثلاثين دورو صرفت منه خمسة عشر دورو لتأمين احتياجاتها⁸⁶. كما يلاحظ أن الأزمة امتد تأثيرها إلى العمرى المعقبة والأحباس الأهلية⁸⁷ التي مثلت شكلا من أشكال تملك المنفعة والتي أقبل عليها أهل توات بشكل كبير وما يؤكد ذلك أن أكثر العقود المسجلة في سجلات الاحباس والتركات لسنة 1944-1945 تمثلت في عقود العمرى والحبس الأهلي والهدف من ذلك ابتغاء ثواب الله سبحانه وتعالى ولتأمين مورد رزق للأهل والذرية وحمايتهم من الفاقة والحاجة وكذا حفظ الأملاك من الضياع ومنع انتقالها خارج الأسرة، فتمثلت أغلب الأملاك المعمرة والمحبسة على الأهل في البساتين والمياه والدور، وحرصا من أهل توات على حفظ الوقف الأهلي والعمرى وضمان وصول منافعه لذوي الحقوق عملوا على تسجيل العقود والاشهاد عليها وتوثيقها لدى المحكمة الشرعية⁸⁸. غير أن الأزمة والضائقة اشتدت على الناس في هذه السنة دفعتهم لبيع العمرى والأحباس أو جزء منها بعد استشارة الشرع وفي نموذج لذلك ما قام أبناء السيدة الهالكة فاطمة الذين لم يكن أمامهم من سبيل لتسديد الديون الكثيرة التي كانت بذمة والدتهم إلا ببيع نصف جنان المعروف بوهاجة الذي أعمره عليها والدها من أجل تسديد الديون التي بلغت قيمتها ثلاثمائة دورو منها دين لشراء الرقضية دين ضريبة البزرة ودين اشتراكات الجمعية الخيرة وديون أخرى في شكل مقادير من القمح والشعير وأموال مع قيمة كفنها والذي يبدو أن ابناها استدانوا لشرائه، ولما رفع أصحاب الدين الشكوى أمام القضاء أذن القاضي لأبناء الهالكة ببيع نصف العمرى لتسديد الديون⁸⁹.

وفي نموذج ثاني أذن القاضي للسيد سالم ببيع حبات من الماء المحبس لتسديد دين كان قد اقترضه لدفع ضريبة الطكس، وفي نموذج ثالث يبين شدة الحاجة ودرجة المعاناة التي عاشها سكان توات في هذه السنة هو للسيد محمد بن دد بن سيدي أبي منصور الذي أذن له القاضي في بيع جزء من الحبس الذي كان بيده والذي يبدو أنه لم يكن يملك غيره لدفع ضريبة الطكس ولتأمين نفقات أسرته من غذاء ولباس فباعه " بثمن معلوم قدره

عشرة مائة دور و صرفها في المحل المذكور ولباسه مع أهله صوفا⁹⁰ ولأن الشرع منح للقضاة وحدهم الأذن في الترخيص لبيع العمرى والحبس ورغم ما عرف به القضاة من تشدد في ذلك إلا أن هذه الشدة والبلوى التي حلت بالمنطقة والتي عاين القضاة مدى تأثيرها على الناس وافتقارهم وحاجتهم جعلتهم يرخصون للناس بيع العمرى والأحباس أو جزء منها عملا بفتوى من أجاز بيع الحبس إذا كان مضطرا للنفقة أن يبيع من أجل ذلك⁹¹، فكانت الأحباس ملاذا للناس لدفع العوز والحاجة ودفع الضرر.

ما يمكن ملاحظته أنه في الوقت الذي اضطر البعض لبيع ممتلكاته للحصول على الغذاء وتسديد ما عليه من ديون وضرائب نجد البعض الآخر يشتري الأملاك من ماء وأرض حتى المحبسة ما يدل على أن وطء الأزمة كان مختلفا على فئات المجتمع، وأن البعض قد تملك في ظل معاناة الآخرين. والبعض استغنى على حساب الضعفاء ببيع السلع بأضعاف أضعافها كالقمح أو التمر وهؤلاء هم الذين وصفهم الشيخ سالم البلبالي بأنهم أصحاب نفوس جانبية⁹² ما يؤكد أن الأزمة بقدر ما كانت وبالأعلى على البعض كانت فرصة للبعض الآخر للربح وجمع الثروة.

الخاتمة: تعد مجاعة 1944-1945 أكبر مجاعة عرفتها المنطقة خلال القرن العشرين فقد كشفت سجلات الأحباس والتركات وفتاوى الفقهاء جوانب هامة عن الأزمة فبينت أسبابها البشرية والطبيعية، كما كشفت شدة معاناة الناس في هذه السنة جراء ندرة الغذاء وغلائه، والأساليب التي سلكوها لتجاوز الأزمة التي أدت إلى تأزم في الوضع الاجتماعي وإحداث تحولات اقتصادية، ومن أبرز النتائج المتوصل إليها:

- أن المنطقة سجلت في تاريخها عدة مجاعات نتيجة عوامل طبيعية خاصة الجراد وعوامل سياسية متمثلة في طبيعة النظام القبلي الذي عرفته المنطقة وغياب سلطة سياسية موحدة.

- مجاعة سنة 1944-1945 لم تكن وليدة تلك السنة بل بدأت ملامحها مع بداية الحرب العالمية الثانية لتبلغ ذروتها سنة 1944-1945. ولم يكن سببها الأساسي الجراد بل نشأت واشتدت بفعل السياسة الفرنسية القائمة على استغلال المجتمع الجزائري حتى في أحلك الأوقات.

- أن المجاعة كشفت وبنيت مدى هشاشة الوضع الاقتصادي للسكان وغياب ثقافة الادخار المادي لدى المجتمع التواتي.
- أن سكان توات واجهوا الأزمة بمفردهم في ظل غياب إدارة الاحتلال التي لم يكن لها دورا في مساعدة الناس والتخفيف من حدة الأزمة بل ساهمت في تفاقمها.
- المجاعة كانت مرآة كشفت روح التضامن بين الناس، ومن أشكاله الاقراض وفضحت في نفس الوقت روح الانانية والانفرادية عند البعض الآخر.
- كشفت المصادر وبنيت أن الأزمة وسعت من دائرة الفقر نتيجة فقدان العائلات لأموالها ومصدر رزقها، وبيع الأملاك والأحباس الذي سجل في هذه السنة ما هو الا مؤشر على مدى خطورة الوضع وتأزمه بسبب الجوع وما صاحبه من ممارسات للاستعمار الفرنسي.

الهوامش:

- 1- توات مصطلح جغرافي اختلف في تحديد حدوده وامتداده بين الكتابات القديمة والكتابات المعاصرة انطلاقا من فترة الاحتلال الفرنسي للمنطقة فبالرجوع للكتابات القديمة التي كتبت عن المنطقة، تفصل اقليم توات وتجعله اقليم مستقل بذاته عن الاقاليم المجاورة (تنكورارين وتيدكلت) بينما تطلق الكتابات المتأخرة كلمة توات على مجال جغرافي أوسع يمتد من من تيلكوزة شمالا إلى فقارة الزوى جنوبا وهي بذلك تضم المناطق الثلاث قورارة (تنكورارين) توات الوسطى وتيدكلت، من انصار الرأي الثاني محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق- درة الأقاليم في أحبار المغرب بعد الاسلام- مخطوط- د ر- بخزانة البلياليين بكوسام- أدرار- الجزائر- ص ص 4-3. للإطلاع على مختلف الآراء ونقدها انظر عبد الله بايا- الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962 من خلال سجلات المحكمة الشرعية- أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر- إشراف د. مبارك جعفري- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية- جامعة أحمد دراية- أدرار- الجزائر- 2018-2019- ص ص 17-23.
 - 2- عبد الرحمن بن خلدون- ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- تحقيق خليل شحادة زكار- دار الفكر- بيروت- لبنان- 200- ج 6- صص 135-136. 3- العياشي- ماء الموارد (رحلة العياشي) 1661-1663- تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي- دار السويدي للنشر- أبوظبي- الامارات العربية المتحدة- 2006- ج 1- ص 79. 4- عبد الحميد بكري- النبهة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14هـ- دار الهدى- عين مليلة- الجزائر- 2005- ص 17. 5- عبد الله بايا- المرجع السابق- ص 23. 6- محمد الهادي لعروق- أطلس الجزائر والعالم- دار الهدى- عين مليلة- الجزائر- 1998- ص 18. 7- محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق- المصدر السابق- ص ص 3-4.
 - 8- مولاي سليمان بن علي بن عمر بن أحمد بن محمد بن فاس يكتي بأوشن ولد بفاس سنة 549هـ/1154م ودرس بها على يد شيخه علي بن حرزهم، انتقل إلى توات بمشورة شيخه فنزل بتيمة في قصر ثم قصر أولاد عيسى وهما قصران من قصور تيمة، ليستقر بأولاد أوشن سنة 595هـ/1199م ويؤسس زاويته التي قبله طلبة العلم وعابري السبيل توفي 1271هـ/670م، انظر:
- A. G. P. Martin- Oasis Sahariennes- Gourar- Touat- Tidikelt- Edition de l'imprimerie algérienne Alger-1908^{p86}
- وأيضا أحمد أبا الصافي جعفري- من تاريخ توات أبحاث في التراث- منشورات الحضارة- الجزائر- 2008- ص 32-33. 9- عبد الله بايا- المرجع السابق- ص 101-102. 10- الصديق الحاج أحمد- التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى 14هـ/17م إلى 20م- مديرية الثقافة لولاية أدرار- الجزائر- 2003- ط 1- ص 43. 11- بايا عبد الله- المرجع السابق- ص 103-104. 12- محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق- المصدر السابق- ص 2-8. 13- بايا عبد الله- المرجع السابق- ص 105. 14- فرج محمود فرج- إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادين- ديوان المطبوعات الجامعية- 2007- ص 47. 15- عبد الله بايا- المرجع السابق- ص 105-106. 16- أحمد بن خالد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري- دار الكتاب- الدار البيضاء- المغرب- 1954- ج 5- ص 58.
 - 17- Abderrahmane Selka- Notice Sur Le Touat- Bulletin De La Société De Géographie D'Alger- Alger- 1922- p 523.
 - 18- ميروك مقدم- مدخل منوغرافي في المجتمع التواتي- دار هومة- الجزائر- 2008- ج 1- ص 124. فرج محمود فرج- المرجع السابق- ص 47.
 - 20- الخراسنة: نمط انتاجي تنظم داخله علاقة هيدرولوجية يتم بموجبها التعاقد على تخريص كمية من المياه الجارية في البستان بين مالك وخراس يدفع بموجبها مقدار معلوم من حاصل الانتاج خلال السنة يتناسب وعدد حبات المياه. ميروك مقدم- الانماط الانتاجية التقليدية في القصور التواتية- دار هومة- الجزائر- 2008- ج 5- ص 34. 21- الخماسة: أسلوب انتاجي يتم التعاقد ضمنه بين خماس وصاحب البستان على أساس تقاضي خمس الانتاج نظير العمل خلال فصول السنة بالبستان. ميروك مقدم- المرجع السابق- ص 17.



- 23- عبد الله بابا- المرجع السابق- ص ص 107-108.
- 24-Abderrahmane Selka- op.cit- p 524.
- 25-بابا عبد الله- المرجع السابق- ص 108-26- فرج محمود فرج- المرجع السابق- ص ص 47-48.
- 27-Bernard Saffroy- Chronique Du Touat Des Repères Pour Une Histoire- C.D.S Ghardaïa- pp 4-6 .
- 28- محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق- المصدر السابق- ص ص 15-17.
- 29-Bernard Saffroy- op.cit- p 7.
- 30-محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق- المصدر السابق- ص 18-31- المرجع نفسه- ص 10-11-32- نفسه- ص 17-33- محمد باي بلعالم- الرحلة العلية إلى منطقة توات- دار المعرفة الدولية- الجزائر- 2015- الجزء 2- ص ص 284-285-34- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجوانر الثقافي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1998- ج 4- ص 216-35- إبراهيم مياي- التوسع الاستعماري الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881-1912- منشورات المتحف الوطني للمجاهد- الجزائر- 1996- صص 108-110-36- الصافي ختير- النضال السياسي والثوري في إقليم توات ما بين 1956 و1962- مذكرة ماجستير في التاريخ العام- كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والانسانية- جامعة بشار- 2011-2012- صص 33-37-38- إبراهيم مياي- المرجع السابق- ص 114-38- الصافي ختير- المرجع السابق- صص 41-42-39- عبد الله بابا- المرجع السابق- ص 50-43- الصافي ختير- المرجع السابق- صص 53-59-41- الصافي ختير- المرجع السابق- ص 51-52-42- عبد الله بابا- المرجع السابق- ص 50-43- الصافي ختير- المرجع السابق- صص 53-59-44- الحمل : وحدة للكيل والوزن استخدمها السكان تعادل 40.95 كغ، انظر مبروك مقدم- الانماط الانتاجية التقليدية في القصور التواتية- المرجع السابق- ص 75-45-تقييد قدر ما أفسده الجراد لسكان كوسام لعام 1324هـ- خزنة ملوكة- بلدية أدرار- ولاية أدرار.
- 46-Exposé De La Situation Générale De Territoires Du Sud De L'Algérie, Présenté Par M. Jonnart- Gouvernement Général- Année 1916- 1917 et 1918- Imp- Libraire – Éditeur Alger- 1919- pp 37-38 .
- 47- محمد باي بلعالم- المرجع السابق- ص 275-48- المرجع نفسه- ص 115-49- محمد بن عباس- الوجيز في تاريخ الجزائر المعاصرة- دار المعاصرة- الجزائر- 2009- ص 50-50- أبو القاسم سعد الله- الحركة الوطنية الجزائرية- ط 4- دار الغرب الإسلامي- لبنان- 1992- ج 3- ص 188.
- 51- محمد شويوب- الاحتلال الفرنسي للجزائر ومسألة استنزاف طاقاتها ومواردها خلال الحرب العالمية الثانية- المواقف- المجلد 13- العدد1- جوان 2018- ص ص 159-160-52- محمود أيت مدور- الحركة العمالية في الجزائر إبان الحقبة الاستعمارية، 1830-1962- دار هومة، الجزائر، 2015، ص ص 212-213-53- محمد بن عباس- المرجع السابق- ص 50-54- محمود أيت مدور- المرجع السابق- ص 212-213-55- المرجع نفسه- ص 217-218.
- 56- سالم البليالي- معاملات مالية جديدة (نازلة)- غير مفهرسة- خزنة الحاج محمد بختاوي- بوقادي- أدرار-57- القلية: من الوحدات المستخدمة في الكيل تعادل 840.15 كغ، مبروك مقدم- الانماط الانتاجية التقليدية في القصور التواتية- المرجع السابق- ص 72.
- 58-G.G.A- Les Territoires Du Sud De L'Algérie- Année 1903-1929- Imprimerie Algérienne- 1919- pp 393-394.
- 59-فرج محمود فرج- المرجع السابق- ص ص 69-70-60- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 10/10/1945- وانظر أيضا سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق-61- سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق-62- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 10 جانفي 1945-63- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 15 جانفي 1945-64- سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق-65- عبد الله بابا- المرجع السابق- ص 294.
- 66-الكوز: من الوحدات المستخدمة في الكيل تعادل 4 أجن، أي 4 كغ. مبروك مقدم- المرجع السابق- ص 75-67- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 19 أكتوبر 1945-68- بابا عبد الله- المرجع السابق- ص 298-299-69- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 19 أكتوبر 1945-70- عبد الله بابا- المرجع السابق- ص 296-71- س- الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 10 جانفي 1945-72- سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق.
- 73- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 10 جانفي 1945-74- الصديق حاج أحمد- ما لم يدون من تاريخ توات الحديث يسألونك عن عام الغلاء- مجلة النخلة- العدد الثالث- أبريل 2007، تصدر عن مجموعة القروط- أدرار- الجزائر، ص 21-75- محمد باي بلعالم- المرجع السابق- ص 275.
- 76- سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق-77- أحد علماء الأسرة البليالية ولد بقرية كوسام عام 1860م درس على يد والده عمل إماما بمدرسة القرية ويرجع له الفضل في تأسيس مسجد كما عمل باش عدل مساعد للقاضي محمد بن عبد الكريم البكري ابتداء من سنة 1934م، توفي سنة 1958م، انظر عبد الله مقلاتي ومبارك جعفري- معجم أعلام توات- منشورات الرياحين- الجزائر- 2013- ص 161، وعبد الله بابا- المرجع السابق- ص 69.
- 78- سالم بن عبد الله البليالي - المصدر السابق-79- العمري: في اللغة مأخوذة من العمر وعرفها ابن عرفة بها تملك المنفعة مدة حياة المعطي بغير عوض. عثمان بن المكي التوزري- توضيح الأحكام على تحفة الحكام- المطبعة التونسية- تونس- 1920- ط 1- ج 4- ص 35-36.
- 80- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 19 أكتوبر 1945-81- نفسه-82- سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق-83- الإجارة: هي عقد لازم على منفعة مدة معلومة بثمن معلوم، أبوبكر الجزائري، منهاج المسلم، دار السلام، القاهرة، 1999، ط 4، ص 304-84- سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق-85- خليل- مختصر خليل بن اسحاق المكي، تحقيق أحمد نصر- دار الفكر- سوريا- 1981- ط الأخيرة- ص ص 241-242-86- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 15/04/1944-87- الحبس الأهلي: يدعى بالوقف الخاص والوقف الذري والوقف المعقب وهو ما كان لمنفعة الحبس وأهله أو أشخاص معينين، منترقحف- الوقف الإسلامي تكوره إدارته تنميته- دار الفكر- دمشق- سوريا- 2006- ط 2- ص 158.
- 88- س، الأخ والتر- 1946-1944- ص 89-89- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 19/10/1945-90- س، الأخ والتر- 1946-1944- د ر- 10/10/1945.
- 91- عثمان بن المكي التوزري- المرجع السابق- ص 25-92- سالم بن عبد الله البليالي- المصدر السابق.